جُمْهوريّة الماعز

مجدي محمد حافظ – مصر

طوابيرُ متراصةٌ بسوادِ العبايات والجلباب البلدي؛ القمصان الأفرنجية المفتوحة الصدر والبنطال الضيّقُ أعلن أيضا عن وجوده؛ الأقفاص الخشبية قد علتْ فوق الرؤوسِ لتستظل بها من الشمس الحارقة؛ مختلف الأعمارِ من شبابٍ وشيوخٍ حتي الأطفال تراصّوا بين هذه الأمتار الطويلة خارج الفرن النصفِ آلي؛ حرارةُ الفرن القادمة من داخلِه قد صبَّ جامَ غضبِه على الجموع الواقفة خارجَه؛ الكلّ يتحسّسُ المناديل بأنواعها وهي تمسح الغضبَ المتصاعد من الوجوه السمراء!

التأفُّف كان واضحًا بعد أن صَبَّتْ الشمسُ بغليانٍ يشوي الوجوه في هذا الجوّ الخانق الحار؛ الخيوط المتراّصة لا تتحرّك؛ الأجولةُ البلاستيكية تخرجُ متسلّلة من داخله إلى مكان مجهول؛ الجميعُ يتغاضى عن السؤال لأنّه معلومٌ أين يذهب والصيحات تتعالى في سبيل الحصول علي الدقيق الأسمر المعجونِ على الأقفاصِ الخشبيّة من أجل سَدِّ الرّمَقِ المفضوح.

جلست بجانب الأبواب الضيقةِ للنصف الآليّ أنتظرُ الفَرَج؛ لم أَذُقْ الزادَ منذ ثلاثة أيام؛ الكل ينظر إلي في احتقار واضح؛ ألا ترون أنّني لم أكنْ في يوم من الأيام شحاذًا؛ كنت صاحب شأنٍ يشار إليّ بالبنان؛ لم يلتفت أحدٌ لما أقوله

بل الكل كان الصمت يغلّفُه؛ ثم تنطلق الهَمْهَمات فيّ بعيدًا عن الصمت؛ اتَّبَعَتْهُ الضحكات من الوجوه التي غرقت في عرقٍ كثيف تبحث عن أي ذريعة للضحك حتى ينقضي هذا اليوم والأيام القادمة بمرّها.

الجلباب الذي أرتديه التصق بجسدي وتفتحت فيه شبابيك غصبًا عني ولم تجرؤ الرقعات على الصمود على هذا الجسد الخشن؛ لم يذق طعم الماء منذ فترةٍ لا أتذكر كم هي طالت؛ الحذاء الذي اهتُرئ وخرجت أصابعي التي اسودّت تمامًا، لقد تشابهت عليّ ناظرًا إليها؛ إنها تشبه لون الأسفلت؛ قرصني الجوع وأنا أنظر إلى الأقفاص الخشبيّة المحمولة علي الأعناق في سرورٍ بالغ؛ أستجدي حاملها أن يعطيني رغيفًا؛ نظرة الاشمئزاز تكسوني وهو يحدقني بها؛ ينصرف غير عابئ؛ حاملا هدية اليوم.

أصوات المعدة الخاوية تعلو؛ تصرخ من الخواء الذي أصابَها؛ لم تكن كذلك منذ بضع سنوات؛ لم يعرف الخواءً طريقَها في يوم من الأيام؛ كان لي ولها أطايب الطعام؛ لم أبخل على أحدٍ بطعامٍ؛ هذا اليسر الذي أصابني أصاب من حولي؛ لم أترك أحدًا بأمعاءٍ خاوية؛ أسمعها تتحسّرُ على الأيام الخوالي!

أنظر إليه وهو يحمل رَصَّةً من الخبزِ وقد تجاوزت الرصّة قامتَه؛ أستجديه أن يعطيني رغيفًا مما يحمله؛ ينظر إليّ بعينيه السوداوين وهو يحملقُ في هذا الأشعث الأغبر؛ نظرات الرعب قد تغلغلتْ في نفسه؛ تذكر كلام أبيه ألّا يتحدث إلى الغرباء؛ لكنّني لم أكن من الغرباء، بل جائعٌ أبحث عما يسد الرَّمَقَ فقط؛ لقد أفزعه المنظرُ خاطفًا رغيفًا من الخبز من بين يديه منطلقًا؛ الصُّراخ تصاعد من الطفل الذي جلس على الأرض يندب حظه العَسِر!

الأرغفة تناثرت علي الطريق المُتَرّب؛ البكاء قد وصل إلى أسماع الخطوط المتراصّة؛ تخلُّوا عن أدوارهم والصيحات قد ألهبت أسماعي؛ الركض قد كان علي أشدّه؛ لم أتجاوز بضعة أمتارٍ حتي سقطتُ؛ لم أَقْوَ علي الصمود؛ كان الوقوع على الأرض مع هذه المعدة والأمعاء الخاوية حجرًا قد سقط في بئر خاوية؛ تعددت الروايات من خاطف الأطفال واللصّ الذي يبحث في الزحام عن الجيوب المتخمة بالأوراق النقدية!

زاد في الروايات رؤيتهم لي في عدة أماكن بحثًا عن ضحاياه؛ الركلُ كان على أشده وأنا أنظرُ في امتعاضٍ وحُنْقٍ على هذه الوجوه التي خلت من الفهم والإحساس بالجوع!

خلقنا (الله) حُفاةً عُراةً ولكن لم يخلقنا جوعى! لم تصل إليهم؛ حتى غلبني الضحك مع الركل الذي طال كل جزءٍ في جسدي المهترئ من قلة الزاد؛ والطفل الذي أخذ ينظر إليّ في سرورٍ بعد أن قاموا بمسح دموعه والاطمئنان علي الأرغفة التي جُمعت بعد تناثرها؛ عَلت الضحكات مع الركل المستمر ورؤيتي الذي يجمع الخبز علي عربة الكراء ويلقي بها إلي الحظيرة المجاورة للفرن الآلي؛ أنظر إلي هذا الماعز الذي أخذ يمضغ قطع الخبز الطازجة في تلذُّذ واضحٍ ناظرًا إليّ في تحدٍّ وتشفٍّ إنها جمهوريتي لا تجرؤ أن تكون واحدًا منها!

جريرتي الجوع وعقابي الموت ركلًا؛ في اليوم التالي خرجت جنازٌ مهيبة؛ من ورائها جمهور غفير من المشيعين يشهدون علي من مات حسرةً وجوعًا في جمهورية الماعز!